الخطاب الديني

في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٦

www.coptology.org

الخطاب الديني في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية

نشر أُستاذنا د. مراد وهبه تعليقاً تاريخياً وفلسفياً على حوار البابا فرنسيس[١] ويا ليت أستاذنا كان قد لمس الواقع المعاش في الكنيسة المصرية أقدم كنيسة مسيحية.

وقد نشر راديو الفاتيكان مقتطفات من هذا الحوار الذى أجراه أندريا تورنيللى مراسل الفاتيكان لدى أشهر جريدة في ايطاليا «لاستمبا» مع البابا فرنسيس قبل طبعه في كتاب تحت اسم مثير للانتباه بعنوان «الرحمة هي اسم الله»، وهو ما جذب انتباه استاذنا الفليسوف د. مراد وهبه.

يجب أن نشير إلى بعض كلمات البابا نفسه قبل أن نبدأ بالإشكالية الفلسفية. فقد بدأ البابا بعبارة مثيرة نُشرت على أكثر من موقع رسمي كاثوليكي: وهي: "البابا مثل بطرس محتاج إلى الرحمة". وقال البابا هذه العبارة في زيارة سجن في بوليفيا للرجال والنساء الذين حُكِم عليهم بالسجن، وقد قابلوه بالترحاب، وأضاف البابا: "كل مرة أَمُرُّ من بوابة السجن لكي أقيم القداس أثناء زيارتي، كنت دائماً أُفكِّر: لماذا هم فقط ولست أنا؟ يجب أن أكون هنا. أنا أستحق ذلك لأن سقطات هؤلاء كان يمكن أن تكون سقطتي. أنا لا أشعر بأنني أسمى من هؤلاء الناس الذين يقفون أمامي. وهكذا أكرر وأصلي: لماذا هو ولست أنا، وأنا أعني بطرس. وقد تصدم هذه الكلمات، ولكنني أخذ العزاء من بطرس الذي خان يسوع رغم أن يسوع اختاره". وتذكَّر البابا عبارة للبابا يوحنا بولس الأول: "أنا تراب"، وقال إنه يردد هذه العبارة؛ لأن بطرس الذي أنكر يسوع وسقط في خطية الإنكار إلا أنه في الإصحاح ٢١ من

---

(١) نُشر في جريدة الأهرام ١٥ مارس، تحت عنوان: رؤيتي لـ "القرن الحادي والعشرين (البابا ١١٦ فرنسيس وتجديد الخطاب الديني". وتجد هذه المقالة مرفقة بهذا المقال.

انجيل يوحنا عندما تقابل مع يسوع لم يعنِّفه يسوع، بل سأله: هل تحبني؟ وجاء الرد من يسوع: ارع خرافي".

جمع البابا كثير من ذكريات مع الذين عاشوا مع القس كارلوس، وكيف أنه عندما اعترف عند هذا القس في سن ١٧ أحس برحمة الله تقبله، بل ترحب به. وعندما مات القس بسرطان في الدم بكى البابا طوال الليل، فقد خسر صديقاً حميماً. ولعل العبارة التالية هي مفتاح لتاريخ الكنيسة: "الكنيسة تحكم على الخطية، ولكنها تُعلن الرحمة للخطاة" والكلمة اللاتينية "miserando" يعقبها misericordando أي ارحمه mercying بل هي "ارحمه واختاره".

"الحكم وإدانة الخطية هو طريق الحق ولكن في نفس طريق الحق قبول الخطاة ومعانقة كل من يعترف بخطأه؛ لأن هذا هو خطاب الرحمة الإلهية المطلقة؛ لأن يسوع غفر للذين صلبوه واحتقروه. وعندما نسلك في طريق الرب، فإن الكنيسة مدعوة لأن تقدم الرحمة لكل من يرى أنه خاطئ، ولكل من يقبل مسئولية أفعاله الشريرة التي فعلها وهو يريد الغفران. الكنيسة ليست موجودة لكي تدين البشر، بل لكي تقدم مواجهة مع زخم محبة الله الرحيمة".

الإشكالية التاريخية:

حقاً إن صراع المطلق مع النسبي هو صراع كل جماعة إنسانية تحاول أن تطبق المطلق، وهو أحد سمات الخطاب الديني على ما هو حادث فعلاً في الحياة، وهو النسبي. لكن الإشكالية الفلسفية رغم وجودها -كما ذكر د. مراد وهبه- لها جانب إنساني محض، وهو فشل أجيال متعاقبة في فهم الخلفية التاريخية التي أدت إلى وجود عبارات، بل أحكام تبدو مطلقة لأنها نُزعت من النسيج التاريخي.

لقد جرى حوارٌ عنيف معي عن الكاثوليك والبروتستانت حول عبارات الرسول: "لا تسلموا عليهم"، وهي عبارات لها الجانب التاريخي الذي يعود الى حركة الردة الى

اليهودية، وهي أحد المحاور الأساسية لرسالة يوحنا الأولى، ومع ذلك نفس الرسول، يحذر من البغضة والكراهية؛ لأن من يكره عدوه ليس حراً من الكراهية، هو مثل عدوه يندفع بالكراهية ويقف مع الظلمة في صف واحد. ووصية محبة الأعداء هي دعوة لتحرر القلب من الكراهية حتى لا نصبح مثل الأعداء. وما كُتب في المصادر التاريخية القديمة هو صحيح حسب التاريخ القديم ولكن هل بعد ألف سنة وأكثر يمكن أن نقول إن الكاثوليك والبروتستانت هم ذات الجماعة التي كانت في العصر الرسولي تقود حركة التهود؟

ترى هل كان المؤرخ البريطاني تومبي يكتب ما يشبه نبوة عن القرن ٢٠-٢١ بأن نسيان التاريخ هو مدخل وباب وسيف الأصولية؟ ألم يكن أستاذنا نجيب محفوظ على صواب عندما كتب "آفة حارتنا النسيان"[١].

الإشكالية الفلسفية وثوابت الإيمان:

المطلق ليس محاصرة صفات الله في صفة أو أكثر. هذا حوار الفلسفة، ولكن ثوابت الإيمان عندنا هي استعلان الله في لحم ودم بشري (يوحنا ١ : ١٤ – عب ٢ : ١٤)، ونحن لم نستوعب بعد صدمة تجسد ابن الله للفكر والمُثل الإنسانية كلها؛ لأن التجسد يسير في طريق مضاد لكل ما في ثقافة البشر جميعاً من تصورات عن الله. والتجسد ليس نصاً، بل فعلاً، وليس قولاً يدور حوله الجدل، بل حقيقة جعلت من الكنيسة جسد المسيح الحي، وليس مؤسسة تُدار بالقانون.

الإشكالية الفلسفية لا تتناول الهوية، أي الانتساب، وهو هنا ليس مطلقاً ولا نسبياً، بل هو انتساب وتواصل مع الحي، أي الإنسان، ذلك الإنسان الذي وصفه يسوع المسيح نفسه بأنه كان عرياناً، ومريضاً، وجائعاً ومسجوناً (راجع مت ٢٥ : ٣١-٤٦)، وهؤلاء هم المسيح حاملاً جراح الإنسانية.

---

(١) راجع مقال على موقع الدراسات القبطية www.coptology.com يناقش هذه العبارة.

إشكالية التجديد في الكنيسة القبطية:

أولاً: تجاهل التاريخ الكنسي والاعتماد على ما ترسَّب في أفكار فقهاء الكنيسة من أفكار ومُثل ليست تاريخية، بل شخصية. أكاد أرى حاجتنا الى كتاب مثل "أسباب التنزيل" للسيوطي لكي نحرر ما أحاط بكلمات الكتاب المقدس من قساوة وشحنات بغضة وكراهية وإقصاء، تُستخدم فيها نصوص الكتاب المقدس كمرآة لتعكس شكل وطبيعة دعاة الكراهية والبغضة.

ثانياً: ومع تجاهل التاريخ جرى حشد للبشر في شبه شيع وجماعات تقاد بالإعلام لا بالإبحاث وتدعو الى إصدار أقسى الأحكام التي تعبر عن قساوة القلب التي دخلت الحياة الكنسية خلال ٤٠ عاماً وأصبح عدد البشر الذين يصفقون لشخص معين هو معيار الصدق وشهادة الأرثوذكسية.

ثالثاً: لقد جرى تدمير امتد قرابة ٤٠ عاماً لمؤسسة التعليم، وأولها الإكليريكية ومعهد الدراسات القبطية. وإن كنا الآن نرى تياراً قوياً في الشباب يعود إلى الآباء ويتقن اللغات الأوروبية وينطلق في طريق مضاد لأغلب ما يُقال في الوعظ وينشر على شبكة المعلومات، وهو نذيرٌ بصدامٍ آتٍ لا محالة؛ لأن التجديد لابُد وأن يبدأ بحوار صادق وأمين مسموح به للكل وعلنياً وليس قاصراً على فئة دون فئة. وأكرر طلبي لقداسة البابا تواضروس الثاني بأن يصدر عدداً نصف سنوي من الكرازة خاص بالأبحاث ونشر الندوات.

لم يأتِ كتاب قداسة البابا فرنسيس من فراغ، بل جاء من توصيات مراكز الأبحاث في الكنيسة الرومانية، ومن بشر يعيشون مع الواقع الحي لا مع الكتب فقط.

لا زالت دعوة الرب يسوع بأن "الإنسان لم يخلق لحفظ يوم السبت"، بل "جعل السبت للإنسان" لكي يستريح الإنسان، فتحولت الراحة الى قيود في شريعة موسى جعلت الإنسان عبداً.

واسم كتاب البابا فرانسيس "الله اسمه الرحمة" لا يحذف صفات الله الأخرى، بل هو في ذات اتجاه صرخة الأنبياء، وهي ذات صرخة يسوع "أريد رحمة لا ذبيحة".

رجاء حي:

المسيح هو رأس الكنيسة جسده، والأمل والرجاء في أنه قادر على تحديث وتجديد حياتنا قبل الخطاب نفسه هو رجاء ثابت لا يتحول. بهذا الرجاء أكرر الدعوة إلى:

أولاً: عقد ندوات مفتوحة لبحث كل ما قيل عن تعاليم منحرفة، ونشر ما يقدم فيها من أبحاث. أمام نور البحث سوف تتوارى الظلمة. وهذه الدعوة مكانها ليس المجلات ولا مواقع الأخبار، بل معهد الدراسات القبطية والكلية الإكليريكية.

ثانياً: أن نتوب عن الأحكام التي صدرت عن تشيُّعٍ وعن بغضة، حيث لم يسمح الذين حكموا بدفاع المتهم أو المتهمين عن أنفسهم، وهذا يعني سقوط الحكم شرعاً وسقوطه أمام ثوابت الإيمان بل ووصايا وتعليم الرب.

ثالثاً: أن لا يصدر حكم بالحرمان من شخص واحد مهما كان، وأن ينال كل مسيحي حقه في الدفاع عن نفسه؛ لأن يسوع المسيح حوكم أمام محكمة تتسلح بالقانون الروماني، ولم يكن في القانون الروماني كله قانوناً يحكم على من يقول إنه "ابن الله"، ولكن عندما أضاف اليهود تهمة سياسية، وهو أنه "ملك اليهود"، كان حكم القانون الروماني مشروعاً؛ لأنه جاء بمثابة إخماد ثورة ضد القيصر. وجاءت أحكام حرمان ضد القانون الكنسي وضد الإيمان نفسه وضد يسوع؛ لأن الحكم جاء لكي يؤكد قوة ومكانة وزعامة، وليس من أجل حقيقة إيمانية، وبتقدير شخص لا يستند إلى مرجعية القانون الكنسي، وفشل المجمع المقدس في رقابة تصرفات الأساقفة والتصدي لسلطان كهنوتي مطلق نُزع بشهوة السلطة من الإطار الكنسي. وهو تصدٍّ ليس فقط مشروعاً، بل واجب.

لقد صدر قرار حرمان الأنبا مينا مطران جرجا دون سبب سوى صراع على حدود الايبارشية، رفض فيه الأنبا مينا أن يتنازل عن بعض القرى؛ لأنها جزء من إيبارشيته. وفي زيارة روما في عام ١٩٧٣ قال البابا بولس السادس: كيف يمكن حرمان أسقف بدون وجه حق وبدون محاكمة في الوقت الذي كان فيه أسقف فرنسي يقود حركة انفصال عن روما، ورفض فيه الإصلاح الليتورجي الذي قرره مجمع الفاتيكان الثاني، ولكن بابا روما بولس السادس لم يأخذ ضده أي قرار لأنه كان يرى أن أي قرار هو بمثابة إغلاق الباب نهائياً أمام رجوع الأسقف والشعب. وماتت حركة الإنفصال.

المطلق هنا الذي لا يجب أن يمس حرية وكرامة كل عضو في الكنيسة، أما الذين أتقنوا لغة المصادرة بل والشتائم، فقد أفرزوا انفسهم كدعاة للشيطان الذي وُصِفَ بأنه "المشتكي" والعدو الذي يزرع العداوة.

لقد صُلبت يوم صُلبت يا يسوع

وذُبحت يوم ذُبحت أنت

فصار لنا مصير واحد وحياة واحدة

"لأنك أنت هو حياتنا كلنا وقيامتنا كلنا" (أوشية الإنجيل).

د. جورج حبيب بباوي

١٧ مارس ٢٠١٦

رؤيتي لـــ «القرن الحادي والعشرين» (١١٧)

البابا فرنسيس وتجديد الخطاب الديني

الأهرام في ١٥ مارس ٢٠١٦

مراد وهبة

إذا أردت أن تحدث تجديداً للخطاب الديني فاقرأ هذا الحوار الـــذى أجـــراه أنـــدريا تورنيللى مراسل الفاتيكان لدى أشهر جريدة في ايطاليا «لاستمبا» مع البابا فرنســـيس وأصدره مع بداية هذا العام في كتاب تحت عنوان «الرحمة هي اسم الله». واللافـــت للانتباه في هذا العنوان أن لله صفة واحدة هي الرحمة، واللافت للانتباه أيضا أن رؤيـــة البابا فرنسيس لله ليست على غرار المألوف سواء في علم اللاهوت المسيحي أو علـــم الكلام الإسلامي. فقد كانت الاشكالية السائدة لدى هذين العلمين محصورة إمـــا في القول بتعدد الصفات لله أو في نفى الصفات برمتها عن الله. أما في حالة البابا فرنسيس فليس ثمة تعدد للصفات أو نفى لها جميعا، إنما ثمة صفة واحدة هي الرحمة. وهنا لابـــد أن يثار سؤالان: ماذا يقصد البابا فرنسيس بهذا المصطلح؟ ولماذا اقتصر عليه دون غيره من الصفات؟

ولكن ليس في الامكان الجواب عن هذين السؤالين من غير أن نكون على وعى بالحالة اللاهوتية التي يواجهها البابا فرنسيس منذ أن أصبح بابا روما في ١٣ مارس ٢٠١٣ إثر الاستقالة المفاجئة التي قدمها البابا بنديكت بعد مرور عامين على رسامته. وقد قيل إن

سبب هذه الاستقالة المفاجئة مردوده إلى شعوره بالشيخوخة. ولكن الشيخوخة لا تأتى فجأة. وبناء عليه لابد من البحث عن سبب آخر غير معلن. والسؤال اذن: ما هو هذا السبب غير المعلن؟

كان الفاتيكان يواجه إشكالية حادة هي على النحو الآتي: في عام ١٩٨١ أصدر البابا يوحنا بولس الثاني قراراً بأن يكون الكاردينال جوزيف راتسنجر (الذى أصبح اسمه فيما بعد البابا بنديكت السادس عشر) رئيساً لمجمع عقيدة الايمان المكلف بإدانة كل مَنْ يخرج على العقيدة . ومعنى ذلك أن رئيس هذه اللجنة هو بالضرورة مالك للحقيقة المطلقة. إلا أن هذه اللجنة لم تعد بلا منافس إذ أصدر البابا يوحنا بولس الثاني قراراً في أول يناير ١٩٨٣ بتأسيس المجلس البابوي للثقافة. وفى أول اجتماع لهذا المجلس أعلن البابا أن ثمة علاقة عضوية بين الثقافة ورسالة المسيحية لثلاثة أسباب: السبب الأول أن الثقافة وسيلة الانسان لتحقيق انسانيته، والسبب الثاني أن الثقافة لها تأثير على الحياة الدينية للمؤمنين، والسبب الثالث أن على المسيحيين فهم ثقافة الآخرين لتدعيم التفاهم الثقافي.

وفى ١٦ سبتمبر ١٩٨٦ تسلمت خطاباً من الأب هيرفى كاربيه أمين عام المجلس البابوي للثقافة ينبئني فيه بأن الكاردينال بول بوبار رئيس المجلس قد وافق على عقد مؤتمر مشترك بين المجلس والجمعية الفلسفية الأفروآسيوية التى شرفت بتأسيسها ورئاستها في عام ١٩٧٨. وأهم ما جاء في الكلمة الافتتاحية للكاردينال بول بوبار قوله: «إننا اليوم أكثر من أي وقت مضى في حاجة إلى الكشف عن عوامل الصراع بين الجماعات البشرية، وإلى البحث عن حلول تستند إلى العقل والعدالة والحب الأخوي خاصة أن مصر مازالت حتى يومنا هذا نموذجاً أصيلاً لملتقى الثقافات بين الغرب والشرق».

ومع بداية القرن الحادي والعشرين شاعت الأصوليات الدينية التي تتوهم أنها مالكة للحقيقة المطلقة، وبالتالي تكون مهمومة بإدانة الآخر. ويبدو أن المجلس البابوي للثقافة قد دخل في صراع خفى مع مجمع عقيدة الايمان. ومن هنا كانت المفاجأة في استقالة

البابا الأصولي بنديكت السادس عشر وانتخاب اللاأصولي البابا فرنسيس إذ إن فكرته المحورية في ذلك الحوار هي رفض الادانة إلى الحد الذى اكتفى فيه بأن اسم الله هو الرحمة، وبأن الرحمة هنا تعنى أن ليس من حق أي انسان مهما تكن سلطته إدانة أي انسان آخر. وعندما سئل البابا في الحوار لماذا البشرية في حاجة إلى الرحمة؟ كان جوابه: لأنها مجروحة، ولا تعرف كيف تضمد جراحها. والجروح لا تكمن في الأمراض الاجتماعية أو في الفقر أو الاقصاء الاجتماعي، إنما تكمن في أننا جميعاً خطاة ومع ذلك يدين كل منا الآخر.

ومع ذلك فإن البابا فرنسيس قال إن ثمة بشرا ليسوا على وعى بأنهم خطاة، إنما على وعى بأن الآخرين الذين ليسوا على شاكلتهم هم الخطاة. وهؤلاء البشر هم الذين يلتزمون بالشريعة ويطبقونها على الآخرين حرفياً بلا رحمة. وهؤلاء في رأى البابا فرنسيس هم «الفاسدون» الذين لديهم احساس مزيف بأنهم مكتفون بأنفسهم ومن ثم فهم ليسوا في حاجة إلى الرحمة. وبلغة العصر يمكن أن يقال عنهم إنهم «الأصوليون» أو «مُلاك الحقيقة المطلقة». وفى سياق هذا المعنى يقارن البابا فرنسيس بين الرحمة والعدالة فيقول بأن الله إذا كان محكوماً بالعدالة فإنه لن يكون الهاً بل يصبح مثل بنى البشر أجمعين لا يريد إلا تطبيق القانون. ومعنى ذلك أننا إذا اكتفينا بالعدالة فإن العدالة عندئذ تدمر ذاتها ولهذا فهي في حاجة إلى الرحمة التي هي أساسية في العلاقات الانسانية. والسؤال بعد ذلك: إذا لم يكن البابا فرنسيس أصولياً فمَنْ يكون هو؟

أستعين في الجواب عن هذا السؤال بما ارتأيته منذ زمن من تناقض حاد بين الأصولية والعلمانية من حيث إن الأصولية بحسب تعريفي هي «التفكير في النسبي بما هو مطلق وليس بما هو نسبى» وإن العلمانية بحسب تعريفي أيضاً هي «التفكير في النسبي بما هو نسبى وليس بما هو مطلق». وفى هذا السياق هل يمكن القول بأن البابا فرنسيس إذا لم يكن أصولياً فهل هو بالضرورة علماني؟ السؤال مثار للحوار إذا كنت تريد إحداث تجديد للخطاب الديني. أما إذا كنت تريد إحداث هذا التجديد خارج هذا السؤال فأنت وما تشاء ولكن بشرط ألا تقوم بتجريح هذا السؤال.